فلسفة النشوء الخالق

موازنة بينها وبين فلسفة النشوء التي ألفها سبنسر

لحنا عياد

٦ — نظرة في كتاب النشوء الخالق

اخصُّ هذا الكتاب بالنظر لانهُ محور فلسفة برجسن . ألَّفهُ سنة ١٩٠٧ وهو أستاذ في كوليج دي فرانس . هذا الكتاب آية فنه . وأساسُ مكانته . ومظهر جدارته . ورسم فلسفته . وقد جعل مؤلفه بين عشية وضحاها من أعلام الفلسفة في عصرنا بل من أعلام الفلسفة في كل العصور . واليك بعض ما فيه : —

جاء في ص٤ من مقدمته ان فلسفة سبنسر زائفة . لانهُ لم يبيِّن فيها نشوء العقل، ولا نشوء المادة بل اخذ اليقينية ، وقطَّعها قطعاً . ثم حاول ضمَّ تلك القطع بعضها الى بعض ، كما يفعل الاطفال بضمهم قطع الكرتون الحاملة اجزاء صورة ، بعضها الى بعض . اما النشوء الحقيقي (الذي يستحق اسم نشوء) فليس الذي يركِّب قطع اليقينية بعضها الى بعض ، بل هو الذي يبيِّن كيف نشأ العقل ، وكيف نشأت المادَّة . وعبارة برجسن هذه ترسم لنا معنى النشوء الخالق محور فلسفته

قال في ص ١٩٦ : نبيِّن هنا كيف نشأ العقل . وفي الوقت نفسه نبين كيف نشأت المادة. وان خطوط تقدُّمنا العقلي تبين صورة فعلنا في المادة. فقد اشتقَّ كلا الاتيين من وجود أوسع وأسمى ، (ص ١٩٧) فهنالك يجب أن نرقب تولُّدها . وقد يبدو ذلك منَّا أعظم جرأة في التفكير الميتافيزيقيّ . لانه أيغال في ما وراء علم النفس ، وعلم الكون ، وعلم ما وراء الطبيعة. لان هذه العلوم الثلاثة تتخذ وجود العقل امراً مسلماً به . فلا تُعنى بأمر تكوينه . بل ان فخنت الفيلسوف الالماني الكبير، وهو أعمق تفكيراً من سبنسر، لم يبحث في امر تكوين العقل (ص ٢٠٠)، وعلى هذا جمهرة الفلاسفة. فانهم لم ينظروا في الشعاب المضويات، بل حسبوا الطبيعة كتلة واحدة. وان الفرق بين العضويات وبين غير العضويات انما هو بالكمّ لا بالكيف. ولكن وظيفة الفيلسوف الفلسفة. والفلسفة تتناول الحقائق لا الظلال. وقد نشعر ان عقلنا الذي يقود كياننا صنع نوعاً من التركُّز او الانكماش (ص ٢٠٢) والفلسفة جهد لتحليل المجموعة الحاصلة من العقل والأصل

الذي منهُ صنع العقل بطريقة التركيز او الانكماش ، واذا رجعنا الى ذلك الأصل فقد وقفنا على تدرُّج تكوين العقل منهُ بطريق الانكماش . فبين الأصل حالة تحيط بؤرة هي العقل (ص٢٠٤) اوترينا أصله ، فالعقل وهو بؤرة في ذلك الأصل لايختلف عنهُ عنصراً . بل هما واحد .

[حاشية] : ان ما أوردناه من كلام برجسن يشير الى أصل منه تكوين العقل . وذلك الاصل هو البديهة والعقل بحسب رأيه تكون بالكماش جزء من البديهة كبؤرة . وظل باقي البديهة الذي لم ينكمش كهالة تحيط به يرينا أصل العقل . هذا هو رأي برجسن في نشوء العقل . فليس هو ظاهرة مادية ، ونشوؤه نظرية واضعة في فلسفة برجسن لم أقف لها على نظير في غيره من فلاسفة الايداع . قال في ص ٢٠٩ . يتناول العلم المادة غير العضوية ، واذا هو بحث في المعنويات اذا ينظر فيها باعتبار مادتها . أما الحياة فلا شأن للعلم فيها . ذلك شأن الفلسفة الخامس ، ولما كانت المادة والعقل ضربين لم يمكن النظر في تكوين أحدهما دون النظر في تكوين الآخر

وقال في صفحة ٢١٠ تحت عنوان « العقل والمادية » : « فلنحصر نظرنا في ما هو أعمق من الخارجية ، وأقل تدخلاً في العملية . أعني نحصر نظرنا في أعماق اختبارنا ، حيث نشعر أنا ضمن حياتنا . فنحن اذاً نغوص في بحر الاستمرار ، نائين عن عالم المادة اشتغالاً بالحياة (ص ٢١١) فاذا انسحبنا من بحر الحياة اذا نحن في بر المادة . فوراء الروحية من الناحية الواحدة ، ووراء العقلية والمادية من الناحية الأخرى ، فعلان ضدّان . فنقل من أحدهما الى الآخر ، وبقياس تقدمنا في الاستمرار الصرف نشعر ان أقسام وجودنا تتداخل بعضها في بعض ، فتركز وجودنا في نقطة واحدة كحد الحسام يفري فاتحاً الطريق الى الأمام . هنا الحياة والعقل حرّان . فاذا انسحبنا من هذا البحر ، او هذه الأبحار ، تحصنت ذاتيتنا ، وتبعثرت ذكرياتنا ، وانتثرت في الفضاء — كأجزاء متجاورة — وبذلك نكون قد هبطنا الى العالم المادي . على هذه الصورة تولدت هندسية فضائنا (٢١٣)

[حاشية] : أراد برجسن بذلك ان لاجسام في عالم الكيفية ، حيث يكون وجودنا كنقطة هندسية ، غير ذات امتداد . فاذا خرجنا من ذلك الوسط تفرق ما كان مجتمعاً بمرشم ، او تعدد ، ما كان واحداً وتعدد . فهذا هو عالم المادة . هذه هي نظرية برجسن في كيف نشأ العالم المادي . قال : — وهكذا تولد العقل والمادة بشكلين ضدين في وسط واحد الحركة

(٢١٤) ليس الفضاء ضد طبيعتنا ، ولا الامتداد ضد عقولنا وحواسنا . فان العقل يقسم المادة في الفضاء أقساماً على ما يلزم لانشاء العلم ، لكل ذرة مادية تأثير في كل الكون المادي . كما أشار الى ذلك فارادي بقوله : كل جوهر فرد واحد يملأ الكون : والعلم الطبيعي مبني على تقسم المادة ، وعلى تجاور أقسامها في الفضاء ، واستقلالها أحدها عن الآخر

(ص ٢١٧) المطابقة (بين العقل والمادة) حاصلة طبعاً في كون المادة حركة معكوسة (عن الحركة العقلية) في الوسط الذي كون العقل

[حاشية] : حل هنا برجسن عقدة الايثار و نسف فلسفته . ذلك اتصال العقل بالمادة عقدة العقد عند خلفاء ديكارت الذي قال بجوهرين متباينين منفصلين أحدهما عن الآخر كل الانفصال هما العقل والمادة

فكيف يؤثر جسدها في الآخر ؟ من هنا نشأ مذهب التوازي ، ومذهب التدبير السابق [illegible] وغيرها من المذاهب العديدة . ولكن برجسن استغنى عن كل ذلك بفهمه للعقل والمادة فاعتبرهما متعارضين لهما منطلقان ضدان

وقد ضرب لذلك مثلاً قال :— انظر إلى أعظم شعر على مستوى سفحات بعيدة عن بناء ، فأدخل في فكر الشاعر . وأرافق حركته كفعل واحد غير قابل الانقسام . فافهم روحه ناقلاً عن ماديات الشعر من حبر وورق وكلمات وحروف ونحو ذلك . وما دامت نفسي مستغرقة في المعنى الروحي لا أشعر بالمادي . ولا أحتاج في خلق العالم المادي إلا الى شيء واحد . وهو التكوص في عكس الاتجاه الاول . او التوقف في المجرى الروحي . أي التخلي عن معنى الشعر الروحي . فحينذاك تقع العين على الحبر والورق والسطور والكلمات . ثم أنتبه الى الوزن والقافية أعني ان العالم المادي قد خلق لي بخروجي او ارتدادي عن العالم الروحي . فهما حركتان سلبية وإيجابية كونتا العالمين المادي والروحي . او المادة والعقل . اما الأقدمون فحسبوا عالم المادة تدانياً من الكائن السامي الذي هو ايجاب او سكون . على هذا كان الفلاسفة في عهد افلاطون الى عهد بلوطينوس . بناء على ان الكائن السامي منزه عن الحركة او التغير (ص٢٢٢) فكون التغير ، او وجود المادة نقصاً في كيانه . وعلى ذلك تسموا الموجود الى كائن وغير كائن الاول عالم اليقين . والثاني عالم المادة

[حاشية] : اقد وضع ان الحركة او الصيرورة حسبت عند الاقدمين نقصاً . اما عند برجسن فهي اليقينية بالذات . واذا زالت الحركة زال الوجود باجمعه

يطرق برجسن في صفحة ٢٢٢ وما بعدها ابحاثاً في الاستدلال والاستقراء ، مبيناً هندسية صفتهما . وأن الاستقراء مبني على فكرة العلة والمعلول ، وان الناموس الطبيعي يعين التكرار . فيحدث بعدُ ما حدث قبلُ . كقولنا الشمس تشرق والنار تحرق . وهذا هو أس الاستدلال . وهو يدهش عقلنا لانهُ يرينا التالي في المقدمات ، وذلك قانون هندسي . ولكن الهندسة لا توجد ذرة واحدة في الكون . اي ليس فيها خلق . فالوجود انما هو التغير ، او المكان الماجرية الروحية . فالانقلاب تراخٍ . والتراخي امتداد . والامتداد اسُ الهندسة . اي امتداد المتكش

يلمح برجسن في صفحة ٢٢٧ نقطة الارتكاز في فلسفته وهي « الحياة » . وان نظامها غير نظام المادة مع ارتباطهما ، قال : نرى في اختبارنا اليومي بعض الاحياء ، او بعض مجالي الحياة يتكرر ذلك امامنا صوراً وواقعات . فنرى فيها حالة السابق اللاحق في بيئته وأوضاعه فيمكننا ذلك من التصنيف كما في علم الحيوان وفي غير علم الحيوان ، كعلم البسائط والمركبات . فنتراءى لنا وحدة الناموس في العضويات وفي غيرها . لأن كليهما يعود فكرنا الى التجريد (هذا هو مزلق سبنسر) . ولكن في العضويات ما ليس في غير العضويات . في غير العضويات لا يصحب التكرار ما هو جديد . اما في العضويات ففي كل تكرار شيء جديد . مثلاً : البلورات واحدة منذ الازل . تتكرر على

وتيرة واحدة ، دون تباين او تجديد (ص ٢٣٨) بين سابق ولاحق . كذلك التراكيب الكيميائية ، والاعيان الرياضية . ففي جميع هذه الاشياء المتقدمات تتأخرها دون ادنى تغير او تجدد او خلق . أما في عالم الاحياء فثمة تباين بين كل سابق ولاحق يزداد ذلك التباين بزيادة التكرار حتى يضطر بنا الامر الى نشوء انواع جديدة او انشعاب الذراري بعضها عن بعض حتى كونها من أصل واحد . وبهذا التجدد او الانشعاب يتجلى «النزوع الحيوي» المبدأ المصلح المرمم المجدد الباني المرقي . وبه يحدث الفرق بين النظامين الطبيعي والحيوي . ففي هذا ما ليس في ذاك . في الطبيعي للمعلول علته والمتقدمات تتأخرها من غير زيادة او نقصان . اما في الحيوي فهنالك تباين بين كل والد وما ولد . وعامل هذا التباين «النزوع الحيوي» فالافراد في العالم الحيوي كلية الاختلاف احدها عن الآخر . كما انها كلية الاختلاف عن نتائج التركيب غير العضوي مع تماثل العاملين . فتكرار النسخ في غير العضويات لا يوجد شيئاً جديداً . فاذا طبعنا مائة الف نسخة من كتاب ما فاننا نجد الصفحات والسطور والكلمات في كل سطر واحدة في المائة الف نسخة ، حتى وفي المائة مليون نسخة لو كانت . فالأمر واضح ألا جديد في التكرار حيث لا حياة . وليست العضويات كذلك . هنا لا بد من التباين بين كل نسخة وما قبلها . اذ لا نسخة في العالم العضوي طبق الأصل في كل شيء كما في غير العضويات . ولا تحول الوراثة الحاملة الاعراض النوعية دون التباين في الأفراد . فاذا تكرر التناسل في مائة الف جد فكم يكون الاختلاف . مثلاً ما مدى الاختلاف بين سيدنا ابراهيم الخليل وبين حفيد برجسون ؟ وما مداه بين هذا وبين شخص آخر من الجد الأول ؟ يتقدم برجسن في صفحة ٢٤٩ لتبيان تكون العقل والمادة فقال : — يراد بما ذكر خروج الكائن من الانكماش الى الامتداد . ومن الحرية الى الضرورة الميكانيكية بطريق الانكماش

— فما هو المبدأ الذي يتحول عن الانكماش ليمتد ؟ : — لما كان لا يوجد في لغات البشر اسم لهذا المبدأ فاني ادعوه شعوراً . على انهُ ليس الشعور الشخصي الخاص الذي في كل واحد منا . بل هو شعور عام او كوني . أما الشعور الخاص الذي في شخص فيميل الى عكس اتجاه ذلك الشعور العام منذ نشأ . هذا هو ميل العقل المادي الصيقة والصبغة والقرض . فقد وجد العقل ليعرف المادة ويقودها ويعمل بها وفيها ويألفها ويدبرها . ولا شأن له في الحياة أو في الشعور العام الذي أوجد المادة والعقل . فهنا شعوران عام وخاص . ولكي يطابق شعورنا الخاص الشعور العام الذي منه كان ، وجب ان ينفصل عما هو كائن ، ويلوذ بما هو في ماجرية الكينونة أو الصيرورة . أي يجب ان ينثني على ذاته وان يكون النظر ملائماً للارادة . ولكي نبلغ اصل كل مادة وكل عقل يجب ان نجمع ذاتيتنا في فعل حر لنسوقها الى الأمام . فحينذاك

يكون لنا شعور ايجابي بالصيرورة التي بها تنظمت القوى الايجابية في صورة تحد من الاشأن لنا في امتلاك المجرى الحيوي . حتى اننا في حد الاستسلام للتيار فاننا نكون في محرك شخصي لا غير . فاذا رمنا بلوغ المبدأ العام وجب ان نتعمق اكثر . فاذا امتلكنا البصيرة وجردناها حكمها أدركنا موضوع الفلسفة (ص ٢٥٢) واذا استعدنا كياننا الى ارادتنا ، وارادتنا الى الاندفاع الذي تحدده ، أمكننا ان نفهم ، وان نشعر أن اليقينية هي تموستديم وخلق متواصل . الانقطاع فكل عمل انساني ابداعي ، وكل فعل ارادي حر ، وكل حركة عضوية اختيارية ، كل من هذه الأشياء وما هو من قبيلها يأتي بشيء جديد الى الكون هذا هو معنى النشوء الخالق الذي قال به برجسن

لسنا المجرى الحيوي صرفاً . بل نحن هو محملاً المادة العديمة الحياة بذاتها . وبالفعل الشخصي والجنسي نمد لولب عملنا الى ابعد مداه . فتخلق ما لا يخلقهُ مجرد تجمع المادة . واذا كان توقف الماجرية توقفاً بسيطاً يخلق مادة ، فلا يكون اذاً خلقها امراً غير مفهوم ، أو غير مسلم به . ان مجرد جمع الحروف لا يؤلف شعراً . وانما القريحة تلد الشعر في الفكر . فالخلق هو عمل الفكر البسيط . وتوقف الفكر يشيء الصفة المادية

(ص ٢٥٩) لنا في عالم المادة جسم هابط . ولا خيال يرينا جسماً صاعداً من أسفل الى فوق . ذلك عمل الحياة . فهي التي ترفع الساقط ، وتنهض القاعد . وجميع تحليلاتنا ترينا ان الحياة تميل الى التحرر من القيود المتحكمة في عالم المادة . ولو ان الحياة تركت وشأنها لفعلت ذلك

(ص ٢٦٠) أوجد نشوء الحياة الكلوروفيل النباتي الذي يدّخر الطاقة التي تناولها من الشمس والنبات ينفق طاقة اقلّ مما يدّخر . اما الحيوان فعلى الضدّ من ذلك ينفق اقل كثيراً مما يولّد . وهو يتناول باقي ما يحتاج اليه من النبات عن طريق المعدة . وبذلك يستقيم التوازن في مملكتي الحياة . فنشوء الحياة هو فرع الاندفاع الاول الذي ما فتيء ضد اتجاه المادة . هي الى أسفل وهوالى فوق . تميل المادة الى إرخاء الذراع الى أسفل . اما الحياة فترفع الذراع الى ما فوق الرأس . فالمادة كائن غير صانع ذاته . اما الحياة فكائن صانع ذاته . ومن طبيعة العقل انهُ يرينا الاشياء والأحوال لا الحركات والتيارات . والاشياء والأحوال مشاهد العقل في الصيرورة . فما اراه في الكون هو نشوء اتوماتيتي غير صانع ذاته (٢٦٢) وهو المادة القابلة السير في حركات غير منظورة مقدماً (كما في دخولها التركيب العضوي) فتمثل عملاً يصنع ذاته

يتقدم برجسن بعد ذلك الى اصل الطاقة ، وينظر في العالم الجزري او العوالم الجزرية ويتطرق الى امكان حصول الحياة في غير الارض ، وبغير الطريقة المألوفة عندنا . وذلك بتناول الطاقة (التي تحل الكربون من الشمس عن غير طريقة الكلوروفيل . وهذا خارج عن نطاق هذه المقالة . فاضرب عنها صفحاً اكتفاء بما ذكر

٧ — خلاصة مذهب الشعور الخالق

قرأت كتاب جوم في برجسن وفلسفته . وكتاب الدكتور الذي اصطلح عليه برجسن واجازه ، وأذن لمؤلفه أن يدعو فلسفته « فلسفة التغير » . وقرأت كذلك مقالة ول ديورنت في برجسن وفلسفته في كتابه « شيوخ التاريخ الفلسفة » . ثم قرأت كتاب برجسن « الزمان وحرية الارادة » . وكتابه « المادة والذاكرة » . قرأت جميع هذه غير مرة ولخصتها

وبعد ذلك قرأت كتاب « التطور الخالق » مراراً . ولخصته تلخيصاً يقرب من الترجمة وما زلت خلال اثنى عشر عاماً اتردد على مؤلفات برجسن حيناً بعد حين . وبعد كل ذلك لا اراني كفؤاً لتحديد فلسفته . اذ اني لم ألمَّ بها الالمام الذي يؤهلني لشرحها قانوماً كما شرح ابن رشد ارسطو . هذا هو عذري لدى قارىء هذه المقالة اذا شام فيها نقصاً او خطأ . فلست بالمغرور ، ولا بالمستخف بخطورة الموقف . والآن أتقدم للقول : —

يبدأ برجسن في تطور العقل و« تطور المادة » . كيف وجدا ؟ وما هما ؟ وهو موقف غير علمي ولا تاريخي . بل سابق للعلم وسابق للتاريخ : هنا يقف فيرى حين تفكيره مبدءاً كونياً لا كلمة في لغات البشر اصلح منه له . فيدعوه « الشعور العام » . او « الشعور الكوني » . لم يقل برجسن ما هو ذلك المبدأ . أالله هو ؟ ام اول مخلوقات الله ؟ ام الانبعاث الاول منه تعالى بحسب فرفوريوس والاسكندريين ؟ ام العقل الاول بحسب ابن سينا ؟ ام هو اثر الله ؟ ام ظاهرة الله ؟ لم يقل برجسن ما هو . ولا انا اقول . لاني لا اقدر ان اسيطر على فكر برجسن فأعين مراده وكل ما قاله في هذا الشأن هو عبارتان في ص ٢٥ من كتاب التطور الخالق . العبارة الأولى : ما هو ذلك المبدأ الذي يترك امكانهُ لنجد ؟ والعبارة الثانية : اذ ليس لنا لفظ أصلح يطلق عليه فاني أدعوه شعوراً عاماً

فهذا الشعور العام عند برجسن هو أصل الاكوان . هو العنصر الأول الذي منهُ نشأ العقل ونشأت المادة . واذ كان العنصر الاول أو تعينه هدف الفلسفة الاغريقية الاول ، من طاليس الى أفلاطون . فهذا الشعور أو المبدأ الاول عند برجسن حركة بسيطة ذات اتجاهين ضدين ، سلب وايجاب . كأن يكون الاتجاه الواحد الى اليمين والآخر الى اليسار . أو ان ذاك الى فوق وهذا الى أسفل . فكون الاتجاهُ الايجابيّ العقلَ أو انهُ هو العقل . والاتجاه السلبي كون المادة ، أو انهُ هو هي . هذا هو مذهب برجسن في أصل العقل والمادة وماهيتهما واستمرار الماجرية هو الحياة . والحياة هي الديمومة وهي الذاكرة وهي الزمان الاضافي ، وهي البقية الازلية . فأصل الاكوان عنده الحياة — أقول ذلك بشيء من التحفظ لعدم ثقتي بذاتي تمام الثقة — هكذا يتراءى لي . وقد وصف برجسن دخول الحياة في المادة وتجليها بها

في الفصل الثاني من كتاب النشوء الخالق ، مبتدئاً من صفحة ٣٠ فصاعداً . وخير كلامه ما يأتي رطباً بشيء من التصرف :

تمثل الحياة اندفاعاً متفجراً مفرقعاً فهي كبكرة تتفجر في انطلاقها فتتفجر شذرات . وكل شذرة كرة كالأصلي وهما صفة الاصل . أعني أنها انفجارية فتتفجر الشذرات في انطلاقها ويتولد عن انفجارها شذرات هي إيضاً كرات لها صفة السلف . أعني أنها كرات متفجرة ويتكرر هذا الفعل الى ما شاء الله . هذه هي ماجرية الحياة في المادة ، أو في مشهد الوجود . أما النزوع الحيوي فهو المبدأ الحي في المادة . فهو الأصل المنشعب في هذه الانفجارات ، وينشأ عنهُ الشعابات في المادة المتلبسة بالحياة . ويدعو برجسن ذلك ، المبدأ الحي « Elan Vital » وترجمته النزوع الحيوي . أو المحرك الحيوي أو المحرك الأول اذا شئت بحسب أرسطو . فهو التصور الكوني ظاهراً في المادة ، أو عاملاً بها وفيها . فالحياة انفجار متسلسل تنشأ عنهُ عوالم ثلاثة ، تتباين بحسب نسبة أو حال النزوع الحيوي في كل منها . فالاول عالم النبات والنزوع الحيوي فيه نائم ويتصف هذا العالم بعدم الحركة الانتقالية . والثاني عالم الحيوان ، والنزوع الحيوي فيه مقيد ويتصف هذا العالم بالغريزة . والعالم الثالث الانسان والنزوع الحيوي فيه حر . ويتصف هذا العالم بالعقل . والغريزة هي البديهة مضيقة . والعقل هو البديهة تكتلت كبؤرة في وسط سحابة البداهة . فالعقل والغريزة صنوان ضدان متلازمان . هما في كفتي ميزان تشيل الواحدة برجحان أختها ، فحيث عمت الغريزة وسادت كان العقل ثانوياً . هذا هو حال الحيوان . وحيث عما العقل وقاد العملية ضعفت الغريزة . هذا هو حال الانسان

فالنشوء الذي قال به برجسون انشعابي ، لا سلسلة صاعدة . فيخالف بذلك أرسطو الذي جعل عوالم الطبيعة سلسلة صاعدة في ثلاث درجات هي الجماد والنبات والحيوان . وذروتها الانسان . فالانسان عند أرسطو وعند سبنسر غاية النشوء . وليس كذلك عند برجسن بل انهُ يرى ان لا غاية في النشوء . وانهُ لا يسير في خطٍّ واحد ، بل في خطوط عديدة . وقف بعضها وواصل التقدم البعض الآخر . وأشهرها خطان ، الاول خط الحشرات ، وعلى رأسها طوائف النمل والنحل . والثاني خط الفقاريات ، وعلى رأسها الانسان

يقول برجسن لو كان النشوء سلسلة صاعدة غرضها الانسان لكان النظام أمامنا يتجلى كلما تقدمنا ، ولكانت الوحدة تسود كلما تقدمنا في ماجرية النشوء ، والواقع ضد ذلك ، فان التشابك او التعقيد هو الذي يزداد كلما تقدمنا في ماجرية النشوء ، وليس النظام والوحدة ، ذلك وراءنا لا أمامنا . فاذا رمنا الوقوف على الوحدة البسيطة فالى الوراء ننظر لا الى الأمام ص ٢٥٣ . فكل من الأنواع الحية يحمل نزوعاً حيوياً ذاتياً . فلا يهتم الا بذاته . كأن لا حيّ سواه . من هنا تنازع البقاء في الافراد والأنواع والهيئات

وأرى ان نشوء برجسن الانشعابي اكثر انطباقاً على العلم من نشوء سبنسر وأرسطو . فأولاً — لأن الاستمرار هو صفة الاكوان براهنة كما نرى ذلك في دوران الاجرام السموية دوراناً محورياً وانجومياً . والانشعاب مألوف في اشتقاق المجرات والفقاريد والنظم الشمسية من السديم الأزلي العام الذي لا نعرف له حدوداً الى أرقى رتب الحيوان . ونرى ذلك ايضاً في النبات العضوية في شكل محسوس ملموس . فأصل الأحياء واحد له خواص كل من النبات والحيوان وأول انشعاب في هذا الأصل كوّن عالمي النبات والحيوان ، وأقدم كوائن هذين العالمين متقاربة حتى لقد عدها بعضهم في عالم الحيوان وهي نبات او في عالم النبات وهي حيوان

تلا الانشعاب الاول انشعابات نشأ عنها انقسام كل من النبات والحيوان الى اقسام وأقسام اقسام الخ . فطوائف الاحياء متعاصرة لا متعاقبة ، أصلها الواحد والبسيط ، نشأ عنهُ المتعدد والمركب . وهذا حكم يصح في العلم صحته في الفلسفة . فأول النبت فلقة واحدة ، بلهِ ذو الفلقتين ، وأول الاحياء واحد الخلية بله متعدد الخلايا . وأصل الحيوان خنثى يتم وظيفة الجنسين . ثم انشعب الى ذكر وانثى ، وأصل المادة الاثير انشعب الى عناصر عرفنا منها الى الآن نحو اثنين وتسعين ، هذا هو الأصل والفرع في عالمي المادة والحياة

وتتضح لنا صفة الانشعاب في الحيوان اكثر منها في غيره فلنا القبل ، وفي كل قبيل شعاب تدعى صفوفاً ، وشعاب الصف رتب ، وشعاب الرتبة عائلات ، فأجناس فأنواع

فنرى في هذا كما نرى في النبات وفي البسائط والمركبات صفة الانشعاب العامة . فهي أدنى الى العلم من القول بنشوء يتقدم في سلسلة صاعدة . هذا هو نشوء برجسن الخالق

٨ — موازنة النشوئين

بقي عليَّ ان أورد وجوه التشابه والتباين بين نشوء سبنسر ونشوء برجسن فأقول : —

اولاً : يتفقان في المادة غير العضوية ويختلفان في العضويات

فنشوء سبنسر مفصولي والناشئات قابلة فقط . والعامل في النشوء الانتخاب الطبيعي . فلا شأن للناشيء وانما هو وسط ينفذ فيهِ حكم الناموس . هذا هو نشوء سبنسر . اما نشوء برجسن ففيهِ للعضويات جهود وللجهود أثر او آثار في الاحياء ارادة وجهد وأثر ليست في المواد العديمة الحياة

الثاني : نشوء سبنسر تصعيدي تاريخي ، هو عبارة عن وصف الحوادث الجارية في الكون في موضوعات او اوساط متنوعة ، في الجماد والحي والعقل والهيئة الخ

يرى سبنسر هذه الاشياء رؤية راكب الطيارة مدينة تحتهُ ، وقد مرَّ بها فيصف ما رأى . اما نشوء برجسن فكتابة فيلسوف التاريخ . يصف ما رأى . وصف رجل قطن مدينة . فجاز في شوارعها . وسكن بيوتها . وعرف اوضاعها وعاشر أقوامها وخبر شؤونها فيتكلم حقاً عن

خبرة واطلاع . فلا يقتصر على قص الحوادث التاريخية بل يروي الحوادث ويحللها ويسابقها ولاحقاتها وعللها ومعلولاتها . هذا نشوء برجسن

الثالث : يرى سبنسر ان ناموس نشوء الحياة هو نفس ناموس نشوء أحوال المحيط العضوي . فاذا لم يطابقها هلك ، وزال من عالم الوجود . فنشوء الحياة مطابقة العضوي للمحيط و تأثر . فهو متفعل ، متأثر . وتراثه تراه حتى ورث سلفه . وليس له حول ولا حول . أما برجسن فيرى ان نشوء الحياة هو مطابقة احوال المحيط الكائن العضوي . فالعضوي مؤثر كما انه متأثر . وفاعل كما انه متفعل . فهو كرجل مجاهد يقتني ثروة بجده واجتهاده اضافة الى ما ورث عن سلفه . فثروة عضوي برجسن عملية طارف وتليد

الرابع : لنشوء سبنسر خط صاعد من ادنى المركبات الى ذروتها العليا وهي الانسان . كأنه غاية النشوء . أما نشوء برجسن فليس خطاً صاعداً بل انشعابات في انشعابات ، وليس ثمة غاية . وبعبارة أضبط « لسنا نحس في النشوء ، الانشعاب من غاية . فسير هذا النشوء كنضح الأرض كثير التعاريج والعقبات من أغوار وأنجاد وسهول وأودية ، أو كمجرى النهر على سطح الأرض كثير التعاريج والالتفاف »

ويستفاد من سبنسر ان الحياة ظاهرة مادية ، والعقل ظاهرة حيوية ، والعمران ظاهرة اجتماعية ، فلما بلغت المادة درجة معلومة في سلم النشوء بدت فيها ظاهرة ندعوها « الحياة » وفي موقف معلوم تبدو في الحياة ظاهرة ندعوها « العقل » وكذلك في الاجتماع وغيره . وعند برجسن الحياة هي عنصر الوجود ، وبقية الكون ، والعقل والمادة تكونا بحركة واحدة ذات اتجاهين ضدين ففي نشوء برجسن وحدة المادة والعقل ، ومطابقتهما

الخامس : ان لنشوء سبنسر ميكانيكي جتمي . ونشوء برجسن ارادي حر خالق فاعل . ويقول فيه برجسن انه يفوق الميكانيكا والجتمية

وأخيراً : نشوء سبنسر « لا أدري » . والعلة الاولى عنده لا يمكن أن تعرف بل هي كما قال Unknowable . أما فلسفة برجسن فصوفية . والعلة الازلية عنده لا يمكن أن تجهل : « بها نحيا ونتحرك ونوجد » . ولو جاز لي القول لقلت ان فلسفة برجسن تطور فلسفة سبنسر وتكاملها . ونسبتها اليها نسبة البوذية الى البرهمية ، أو نسبة المسيحية الى اليهودية . فكما أن البوذية تطور في البرهمية وعروج عن العقل الى الحقيقة هكذا فلسفة النشوء الخالق الذي قال به برجسن هو تطور فلسفة سبنسر وتكاملها . لا يقينية في فلسفة سبنسر . فهي تنحصر في الصور والاعراض . وفلسفة برجسن تتناول اليقينية التي هي قوام الوجود ولا تنقيد بالصور والاعراض . وتلك اليقينية هي الاستمرار ، التغير ، الحركة ، الخلق ، الصيرورة . فهي فلسفة بكل معنى الكلمة . وهي ضربة قاضية على رأس المادية